

مساهمة معرفية ومنهجية في تعميق الحوار حول سيميائيات الثقافة في المغرب (2)، في عمق العلاقة الرابطة بين الفرد وعلامات النسق الثقافي الذي ينتمي إليه هوية وتاريخاً. إن التفكير في النسق الثقافي "الممكн الواقعي" في هذا الذي يجب التفكير فيه، حفر في طبقات نسق المواقف والامتثال لمنطق المعنى المشترك الذي يتحول إلى لأشعور ثقافي يوجه أفراد الكلية الاجتماعية ويملي عليهم نمط الوجود الذي يتوجب عليهم ترهينه وتحقيقه في الزمان والمكان، فالمعنى المشترك بهذا المعنى هو لأشعور النسق الثقافي الذي يتحول في سلطة، تؤسس شراع الذوق والقيم، لتسليط الضوء على تداخل الثقافي واللغوي في التجربة الإنسانية لاكتشاف أن استعمال الفرد لعلامات الثقافة التي ينتمي إليها، استعمال يمر عبر مصفاة "التسنين الثقافي" الذي يستثمر العلامات بمحتوى قيم الثقافة التي ينتمي إليها، فكل لغة كما تقول -شوشانا فيلمان- تملي على مستعملتها بداعاتها ومحرماتها (5) ومن تم فالفرد ككائن اجتماعي لا يملك إلا إمكانات محدودة في طرائق استعماله لعلامات اللغة الطبيعية أثناء تواصله الشفوي أو المكتوب أو المصور (صورة) . وهو ما يجعل الفرد لا يستطيع أن يلجاً إلا إلى اختيارات محدودة ومستمرة قبلياً بمضامين الثقافة التي ينتمي إليها. وقبل أن تتحقق خطابها في الكتابة والصورة هي ذات (فرد) تنتهي إلى "سنن ثقافي" ينتاج علامات فالوجود الوحد الممكн للعالم هو "الوجود المفهومي الذي يحول الأشياء إلى كيانات رمزية يتجاوز دلالاتها على نفسها لكي تتحول إلى سند لأبعاد إيجابية وخيالية ورمزية، فالفرد في استعماله اللغة التي يفكر بواسطته او داخلها لا يمكن الفكاك من أسر "التسنين الثقافي" لهذا يمكن القول "إن العلامات هي أداتنا الوحيدة في تنظيم التجربة وتبيّن موقعنا داخل كون لا يرحم، ولا يتعلّق الأمر فقط باستعمال ملامات اللغة في التواصل بين الفرد والمجتمع في الزمان والمكان، صحيح إن الجسد هو ذاته في كل مكان ويختضع باستمرار لنفس الإكراهات الفيزيقية، إلا أن الأطراف المتحركة داخل هذا الجسد والإيماءات المتولدة عنها وكذا سجل الدلالات التي تستنبط منها ليست كونية وتحتفل من مجتمع إلى آخر، استعمال لعلامات لغة تستثمرها الثقافة بمضامين قبليّة، فاللغة ناقلة لقيم المجتمع الانترولوجية والثقافية وفيها يتجسد مخيالها القيمي Imaginaire Axiologique ذلك أن اللسان (اللغة) حسب ثنائية اجتماعية ونسق للقيم فهو "باعتباره مؤسسة لا علاقة له بالفعل الفردي، إنه تعاقد جماعي لا ول للفرد أمامه ولا قوته، وهو باعتباره نسق من القيم يتكون من عناصر تشتمل في الآن نفسه باعتباراً ما يحل محل شيء ما" (ص47) في حين أن الكلام هو الاستعمال الفردي في تواصله مع أفراد المجتمع، فالكلام إجراء "يعود إلى الفرد وإلى قدرته على تحويل النسق إلى إجراء وتحويل الثابت إلى متغير وتحويل العلامة المفردة إلى خطاب، استعمال الفرد لعلامات لغته استعمال لعلامات المسكوك في الثقافة و "تحول مطلق من الجماعي والعام والمجرد إلى الفردي والخاص والمحسوس" ، وأنه أداة فردي يضيف سعيد بنكراد " فهو يشير إلى قدرة الفرد على تحويل اللسان من نسق مجرد إلى كيان مرجي من خلال أفعال تحيينية، والإمساك بهذه الفردية يتم من خلال : 1- التأليف الذي من خلاله تستطيع الذات المتكلمة استعمال سنن اللغة للتعبير عن أفكارها. وبطبيعة الحال يتعلّق الأمر هنا بما تسميه السيميائيات بإجراءات صوغ الخطاب (Discursivisation) ، والذي يتكلّم ويكتب أو يرسم يصوغ خطاباً عبر علامات اللغة التي يتكلّمها في zaman والمكان (7) ضمن حدود يرسمها النص الثقافي للمجتمع، وإرغامات تحدّ من حركة التأليف والحرية، بل إنها أيضاً "محاضرة بالإكراهات ذات الطابع الاجتماعي والديني والأخلاقي، والتي على الرغم من وجودها خارج فإنها تمارس ضغوطاً على الذات المتكلمة وتفرض عليها انتقاء وتركيباً للوحدات والمقامات وفق مقتضيات المقامات والسياقات المتنوعة (ص 47). إن انتقاء الدال للتعبير عن مدلول لا يمكنه تفسيره إلا بمعرفة أن الدال "صورة سمعية مشتقة من كيان صوتي، أو هي تمثيل طباعي (في حالة وجود كتابة)، متواillة من الأصوات أراد لها الاستعمال الجماعي الناتج عن تعاقد لا تعرف له بداية، أن تكون كياناً يحل محل شيء آخر، (ص50) فالدال له مميزاته فهو "نفسه وليس مادياً، ومفروض على وعي مستعمليه، (ص5) والعلقة الرابطة بين الدال والمدلول هي من طبيعة اعتباطية والاعتباطية في مفهومها الإدّني هي غياب منطق عقلي يبرر الغحالة من دال إل مدلول، (ص51)، فلا وجود لعناصر داخل الدال "تجعلك تنتقل آلياً إلى داخل المدلول (ص51). خاصة إذا ما نحن علمنا أن معنى الدال في الثقافة الغربية هو تاريخ معنى وصيروته اخذ من الاستعارة مرتكزاً للوجود (8) إن الإعتباطية القائمة بين الدال والمدلول تشير، "في مفهومها الأقصى إلى الطابع الثقافي الذي يحكم الظواهر المكونة للتجربة الإنسانية في كليتها، فإذا كانت الثقافة هي نقيس الطبيعة، فإن الاعتباطية هي طريقة أخرى للمتول، فإن الثقافة هي ما يحدد الإضافات التي جاء بها التمدن وما خلفته الرغبة في التخلص من المحابيث والاستعانت بالكتاب" (52). ولكن ماذا عن الاستعمال الذاتي لعلامات اللغة خاصة في ميدان الإبداع؟ هذا سؤال ثقافي مشروع، خاصة، إذا ما نحن علمنا بأن الكتابة (والإبداع الفني بشكل عام) فعل اختلاف ونسق مندمج ثانوي يخترق الحدود التي يرسمها "النص الثقافي" أما أفراد المجتمع في تداولهم واستعمالهم لعلامات اللغة من أجل التواصل (9)، ومن هنا

تكمّن أهمية مفهوم "السيميوزيس" (أو السيميوز) Semiosis فاعتباره مفهوماً محورياً في سيميائيات الثقافة بحكم أنه يشير إلى عملية التدليل القائمة على إنتاج المعنى من طرف الذات في تجاوزها لثبوتية المعنى المسكوك القائمة بين الدال والمدلول.

السيميوزيس إذن تأكيد للذات كأنـا هناـ الآن في إنتاجها للمعنى وعلى خلاف دوسوسير في تمييزه داخل العلامة بين دال ومدلول يرى عالم اللغة الأمريكي شارل ساندرس بورس ((1839-1914)) في صقله لمفهوم السيميوزيس، إن العلامة هي الوجه الآخر لإيواليات الإدراك لذا لا يمكن تصور سيميائيات مفصولة عن عملية إدراك الذات والآخر إدراك "الآن" وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه الأنـا" (ص60)، فالتجربة الإنسانية تشتعل بكلـة أبعادها كمهد للعلامات : لحياتها ولنـموها ولموتها أيضاً، كما أنها تشتعل أيضاً كمصدر لسلطة المعنى المشترك "فلا شيء يفلـت من سلطـان العـلـامـةـ ولا شيء يمكن أن يستغلـ خـارـجـ نـسـقـ يـحدـدـ لهـ سـمـكـهـ وـطـرـقـ إـنـتـاجـهـ لـمـعـانـيـهـ وـلـوـ جـوـدـ لـشـيءـ يـخـلـقـ حـرـاـ طـلـيقـاـ لـاـ تـحـكـمـ حدـودـ وـلـاـ يـحـدـ منـ نـزـوـاتـهـ كـنـسـقـ،ـ (ص60)ـ وـهـوـ المـسـؤـولـ أيـضاـ عـنـ إـقـامـةـ الـعـلـاقـةـ الـقـائـمـ بـيـنـ هـذـهـ المـفـاهـيمـ الـثـلـاثـةـ آـنـهـ "ـسـيـرـوـرـةـ يـشـتـغلـ مـنـ خـالـلـهـ شـيءـ مـاـ كـعـلـامـةـ وـيـسـتـدـعـيـ اـسـتـيـعـابـ الـكـونـ منـ خـالـلـ ثـلـاثـ مـسـتـوـيـاتـ ماـ يـحـضـرـ فـيـ الـعـيـانـ وـماـ يـحـضـرـ فـيـ الـأـذـهـانـ وـماـ يـتـجـلـيـ مـنـ خـالـلـ الـلـسـانـ"ـ (ص61)،ـ فـإـذـاـ كـانـ المـاثـولـ يـشـتـغلـ كـأـدـاءـ نـسـتـعـمـلـهـ فـيـ التـمـثـيلـ لـشـيءـ آـخـرـ فـإـنـ "ـالـمـوـضـوـعـ هـوـ مـاـ يـقـوـمـ الـمـاثـولـ بـتـمـثـيلـهـ سـوـاءـ كـانـ هـذـاـ الشـيءـ الـمـمـثـلـ وـاقـعـيـاـ أوـ مـتـخيـلـاـ أوـ قـابـلـ لـلـتـخيـيلـ أـوـ لـاـ يـمـكـنـهـ تـخـيـلـهـ عـلـىـ الـإـطـلـاقـ"ـ أـمـاـ الـمـؤـولـ فـيـعـتـبـرـ "ـثـالـثـ عـنـصـرـ دـاخـلـ نـسـيـجـ السـيـمـيـوـزـيـسـ"ـ،ـ وـهـوـ عـمـارـهـ وـبـوـرـتـهـ الرـئـيـسـيـةـ إـذـ أـنـهـ يـشـكـلـ التـوـسـطـ الـإـلـزـاميـ الـذـيـ يـسـمـحـ لـمـاثـولـ بـالـإـحـالـةـ عـلـىـ مـوـضـوـعـهـ وـفـقـ شـرـوـطـ مـعـيـنـةـ"ـ (ص67).ـ يـمـيزـ بـورـسـ فـيـ إـطـارـ مـسـتـوـيـاتـ الدـالـلـةـ بـيـنـ مـؤـولـيـنـ،ـ هـوـ الـمـعـنـىـ الـمـباـشـرـ الـذـيـ يـفـهـمـ مـنـ الـعـلـامـةـ،ـ فـالـمـؤـولـ الـدـيـنـامـيـكـيـ يـؤـسـسـ عـلـىـ أـنـقـاصـ الـمـؤـولـ الـمـباـشـرـ وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـوـجـدـ إـلـاـ مـنـ خـالـلـ وـجـودـ الـأـوـلـ،ـ فـيـتـخلـصـ مـنـ الـمـعـنـىـ الـمـباـشـرـ لـيـنـتـبـقـ نحوـ آـفـاقـ جـدـيـدـ تـضـعـ الدـالـلـةـ دـاخـلـ سـيـرـوـرـةـ الـلـامـنـتـهـيـ"ـ (ص70).ـ السـيـمـيـوـزـيـسـ (أـوـ التـدـلـيلـ) دـيـنـامـيـةـ إـنـتـاجـ دـاخـلـ ثـبـاتـ مـعـنـىـ الـعـلـامـةـ الـمـسـكـوـكـةـ،ـ وـهـيـ دـعـوـةـ للـبـحـثـ أـيـضاـ فـيـ أـصـوـلـ الـحـوـارـ الـقـائـمـ بـيـنـ الـفـرـدـ وـعـلـامـاتـ الـجـسـدـ الـاجـتمـاعـيـ،ـ وـلـعـلـ هـذـاـ دـفـعـ سـعـيـدـ بـنـكـرـادـ إـلـىـ الـقـوـلـ وـهـوـ يـقـرـأـ "ـأـلـبـوـمـ"ـ الـمـصـورـ وـالـمـخـرـجـ السـيـنـمـائـيـ الـمـغـرـبـيـ دـاوـودـ أـوـلـادـ السـيـدـ،ـ بـأـنـ هـذـاـ الـأـخـيـرـ"ـ كـانـ يـعـرـفـ بـالـضـبـطـ جـوـهـرـ مـاـ هـوـ مـقـبـلـ عـلـىـ إـنـجـازـهـ،ـ لـقـدـ كـانـ يـشـتـغلـ وـفـقـ تـصـورـ دـقـيقـ وـوـاضـعـ"ـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ يـتـحـولـ دـاوـودـ أـوـلـادـ السـيـدـ إـلـىـ ذـاتـ الـاـخـتـلـافـ الـتـيـ تـسـتـعـمـلـ عـلـامـاتـ مـسـتـثـمـرـةـ بـقـيمـ مـسـكـوـكـةـ فـيـ الـمـخـيـالـ الـجـمـعـيـ لـيـتـسـلـلـ خـفـيـةـ،ـ عـبـرـ الـكـامـيراـ،ـ بـيـنـ تـلـكـ الـعـلـاقـةـ الـرـابـطـةـ بـيـنـ الدـالـ وـالـمـدـلـولـ فـيـ الزـمـانـ وـالـمـكـانـ.ـ كـمـاـ هـوـ الشـأـنـ بـالـنـسـبـةـ لـصـورـةـ الـمـرـأـةـ الـمـسـنـةـ الـتـيـ تـجـلـسـ فـيـ الـوـاجـهـةـ الـأـمـامـيـةـ لـصـورـةـ عـلـىـ أـرـائـكـ تـقـليـدـيـةـ وـيـداـهاـ تـلـقـيـانـ حـولـ الـبـطـنـ وـفـيـ وـضـعـ يـحـيلـ أـيـقـنـوـغـرـافـيـاـ عـلـىـ الـاسـتـسـلـامـ الـرـهـيـبـ وـالـتـخـلـيـ عـلـىـ الـمـقاـوـمـةـ وـمـجـابـهـ الـمـصـيـرـ،ـ عـيـناـهاـ مـصـوبـتـاـنـ إـلـىـ أـعـلـىـ حـيـثـ يـوـجـدـ الـرـجـلـ وـاقـفاـ فـيـ الـوـاجـهـةـ الـخـلـفـيـةـ لـصـورـةـ وـرـاءـ شـبـاكـ غـلـيـظـ لـلـنـافـذـةـ وـعـيـناـهـ تـطـلـانـ عـلـيـهاـ مـنـ عـلـ (ص119)،ـ فـأـمـامـ هـدوـءـ وـاسـتـسـلـامـ الـمـرـأـةـ،ـ وـهـوـ هـدوـءـ وـاسـتـسـلـامـ تحـولـ معـ مرـورـ الزـمـنـ فـيـ الـثـقـافـةـ الـعـرـبـيـةـ الـمـحـافـظـةـ إـلـىـ حـنـينـ وـرـحـمـةـ وـتـسـامـحـ،ـ يـقـفـ الـرـجـلـ فـيـ الـمـقـابـلـ خـلـفـ الشـبـاكـ الـمـسـيـحـ بـأـسـلـاكـ فـيـ عـيـنيـهـ أـمـارـةـ الـتـمـلـكـ وـالـحـرـكـةـ (ص119)،ـ إـنـهـ صـورـةـ تـكـشـفـ عـنـ التـوـافـقـ الـاستـبـادـيـ بـيـنـ الـمـذـكـرـ وـالـمـؤـنـتـ حـيـثـ يـتـمـ تـوزـيـعـ كـلـ شـيـءـ فـيـ الـصـورـةـ وـفـقـ مـوـقـعـ كـلـ مـنـهـمـ دـاخـلـ صـرـحـ الـفـضـاءـ الـإـجـتمـاعـيـ"ـ (ص119).ـ فـإـنـ اـنـتـقـائـهـ لـهـذـهـ الـعـلـامـةـ يـخـضـعـ لـقـرـاءـتـهـ الـخـاصـةـ،ـ إـذـ يـحـولـ هـذـهـ الـعـلـامـاتـ إـلـىـ حـكاـيـاتـ فـيـ الزـمـانـ وـالـمـكـانـ تـحـكـيـ اختـلـافـهـاـ كـمـحـكـيـاتـ،ـ فـالـشـخـصـيـةـ يـقـصـوـ مـحـتمـلـةـ هـيـ قـصـةـ حـيـاتـهـ 10ـ،ـ وـيـتـجـلـيـ فـيـ هـذـاـ الصـيـمـتـ الـذـيـ يـخـيمـ عـلـىـ الشـخـصـ دـاخـلـ قـدـامـ الـمـكـانـ وـالـزـمـانـ،ـ لـكـنـهـ أـيـضاـ صـمـتـ مـفـلـقـ بـتـأـثـيرـ الـلـحـظـةـ عـنـدـمـاـ تـلـقـيـ عـيـنـ وـذـاكـرـةـ الـمـتـلـقـيـ "ـالـمـشـاهـدـ"ـ بـمـاـ يـحـدـثـ دـاخـلـ الـصـورـةـ لـيـلـمـعـ بـرـيقـ الـاـخـتـلـافـ فـيـ الـمـسـافـةـ الـمـظـلـمـةـ الـفـاـصـلـ بـيـنـ الدـالـ وـالـمـدـلـولـ حـيـثـ يـغـيـبـ الـاـخـتـلـافـ (ـاـخـتـلـافـ الـمـعـنـىـ)ـ كـمـكـنـ لـتـحـولـ الـكـامـيراـ إـلـىـ مـؤـولـ دـيـنـامـيـكـيـ يـحـدـثـ نـوـعـاـ مـنـ الـاـرـتـعـاشـةـ السـيـمـيـاـئـيـةـ فـيـ عـقـمـ الـمـعـنـىـ الـمـباـشـرـ الـذـيـ يـحـيلـ عـلـيـهـ مـدـلـولـ الدـالـ (ـالـمـرـأـةـ)ـ فـيـ الـمـخـيـالـ الـأـخـلـاقـيـ لـلـذـاكـرـةـ الـجـمـاعـيـةـ،ـ فـعـنـاصـرـ الـصـورـةـ،ـ باـخـرـاقـهـاـ لـأـحـادـيـةـ الـمـعـنـىـ الـقـائـمـ بـيـنـهـمـاـ تـعـاـقـدـيـاـ وـمـوـاضـعـةـ،ـ لـيـنـفـتـ بـذـلـكـ سـؤـالـ الـاـخـتـلـافـ عـلـىـ مـمـكـنـ ثـقـافـيـ مـغـيـبـ يـجـعـلـ الـصـورـةـ تـنـتـجـ فـيـ تـلـكـ الـمـسـافـةـ الـفـاـصـلـةـ بـيـنـ الدـالـ وـالـمـدـلـولـ "ـالـإـنـسـانـيـ"ـ الـغـرـيـبـ"ـ وـفـيـ ذاتـ الـوقـتـ السـجـلـ الـأـيـقـنـوـغـرـافـيـ الـقـادـرـ عـلـىـ اـسـتـيـعـابـهـ،ـ صـورـةـ لـمـغـارـبـةـ فـيـ وـضـعـ خـاصـ وـبـنـظـرـةـ خـاصـةـ وـبـغـاـيـةـ خـاصـةـ،ـ خـلاـصـةـ: